البناء
الحوار.. وعمل العقل

«١»

على هامش القضية التي جرى الإلماح إليها من قريب: تشدنا واقعة عملية أخرى إلى ساحة الحوار الفكري تعد من المؤشرات الضخمة التي أشرقت بها آي الكتاب الحكيم على طريق الإنسان.

تلك هي واقعة إبراهيم عليه السلام مع قومه عندما دعاهم إلى نبذ تماثيل يعكفون على عبادتها من دون اللّه، وهي من صنع أيديهم، والتوجه إلى فاطر السماوات والأرض خالق الإنسان والكون: بالعبادة والإنابة.

ولقد كانت حجته عليهم أكبر وأقوى من أن يقارعوها أو يفلتوا من سلطانها، وهي حجة آتاه اللّه إياها عليهم، لم يلجأ معها إلى أيٍّ من سراديب الفلسفة أو التعقيد، ولكنه ردَّهم بها ـ من خلال الحوار ـ إلى أن يُعملوا عقولهم، ويتجردوا من سلطان الهوى، والتصورات المستحكمة، الأمر الذي حملهم على شيء من الصحوة، وأن حقاً ما يقول إبراهيم ـ وذلك أول الأمر ـ.

ولكن غلبت عليهم شِقوتهم؛ وبدل أن يراجعوا أنفسهم، ويحتكموا إلى الحق: ركبوا رؤوسهم ولجأوا إلى الإرهاب ـ مسكتين صوت العقل والإنصاف ـ ومقابلة دعوة إبراهيم عليه السلام وحجته الدامغة عليهم بعمدية إحراقه في النار ـ وهذا فعل الطغاة في كل عصر، على اختلاف في الأسلوب والسلاح البديل عن التعقل والحوار المنصف ـ.

وهكذا تسوِّل للطغاة الظالمين المبطلين أهلِ الضلالة والانحراف: أنفسُهم وشياطينهم؛ المصلح يدعوهم إلى الخير والهدى، ويقيم الدليل الناصع على ما يقول، وهم يرون أقرب طريق إلى الإقناع، وأنجح وسيلة لانتصارهم بباطلهم على فكره وما يدعو إليه: أن يقضوا عليه، مستبدلين ظلمهم وجبروتهم بالحوار المنصف وحرية التعبير عن الحق، ويا بئس ما يصنعون.

وهذه آيات بينات من سورة الأنبياء: تصف أول ما تصف إبراهيم عليه السلام بالرشد؛ وذلك ـ واللَّه أعلم ـ لما أنه وقف الوقفة الراشدة في مواجهة أولئك الذين عطَّلوا عقولهم، ولم يعيروا سمعاً لدعوة الهدى، فعبدوا أصناماً لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عنهم شيئاً، حتى كأنهم لم يبلغوا سنَّ الرشد؛ وأين الرشد الحقيقي فيما هم فيه من تنحية العقل ومجافاة الفطرة؟

يقول اللَّه تعالى في السورة المشارة إليها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢].

إن طبيعة الدعوة التي تهدف إلى بناء الإنسان على أرض من الحقيقة، وترتفق بالعقل ليكون في عونها على ما تريد: تواجه الإنسان ـ بوصفه إنساناً ـ بصرف النظر عن أية علاقة نسبية أو قرابة.

ولننظر إلى الحكمة على ساحة التجرد للحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].طبعاً هو لا يسأل عن جنسها وأنها من معدن أو حجر أو خشب؟ ولكنه يستثير عقولهم؛ ما الذي أهَّل هذه التماثيل التي تضعونها بأيديكم لأن تكون في موضع التجلَّة والتعظيم ـ بل موضع التعبد ـ وهي نتاج أيديكم، فإذا بكم تظلون لها عاكفين؟

والجواب الذي دلَّ على أنهم هم في واد، وأن العمل العقلي في واد: قولهم كما نطقت الآية الكريمة:﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنبياء: ٥٣].

إنه التقليد المعطِّل للعقول، الهابط بكرامة الإنسان إلى الحضيض؛ حسبهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدون تلك الأصنام؛ حتى يكون ذلك مسوِّغاً لأن يعبدوها، بل يوجب عليهم عبادتها، معرضين عن أي من دواعي التفكير أو البحث عما وراء الظواهر.

وهكذا تتعرى المشكلة، ويتضح أنها مشكلة إهمال نعمة كبرى حباها اللَّه الإنسان كي يفرق فيها بين الخير والشر، وهي العقل.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يريد منهم أن يرتفعوا عن هذه الحمأة التي أغرقتهم بأوحالها، فيحرروا العقل من إسار التقليد المتمثل في قولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، وفي الوقت نفسه يضمن أن يبدأ العقل مسيرته فيهم، من الإيمان باللَّه الذي فطر السماوات والأرض وما بينهما، والتوجه إليه بالعبادة وإخلاص الدين له؛ لا إلى تماثيل هي جمادات تحت سلطان عابدها، ولا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن تملك ذلك للآخرين.

ولم يبرح الرسول المؤتمن على الهداية ساحة النصح لقومه، فكشف لهم عما يعتقد أنه الحق، وأن ما هم فيه من العكوف لتلك التماثيل، جرياً على ما كان عليه آباؤهم: هو الضلال المبين بعينه، قال لهم ذلك بكل وضوح، وذلك مقتضى النصح؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٤]. أجل كل من الآباء والأبناء الذين يقلدونهم في ضلال مبين؛ إذ المعنى: كنتم وما زلتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين؛ لأن «كان» هنا مقطوعة عن المضي؛ فما داموا على هذا الصنيع فهم في هذا الضلال شأن آبائهم الذين ماتوا على ذلك.

هكذا يخبر القرآن الكريم عن الطريق التي سلكها إبراهيم مع قومه في صرفهم عما هو باطل وعمًى وتوجيههم إلى ما هو حق ونور؛ إنه ـ وهو يسفِّه التقليد الذي يهبط بالإنسان إلى مستوى يعطل طاقته العقلية ـ كان يرسم خطاً مستنيراً على طريق الفكر الإنساني.

وما حفل القرآن الكريم بهذه الأخبار وأمثالها ـ فيما حفل به من طرائق الدعوة ـ إلا ليكون ذلك نبراساً للأمة المحمدية وشارة من شارات المنهج العظيم الذي أحكم بناء العلاقة بين الإيمان والعقل المؤهل لفهم نصوص الوحي وتبيُّن أبعاد الهداية فيها، ليحمل الإنسان حملاً إلى حيث يبرهن على استحقاقه التكريم بتحقيق وجوده

الذاتي من طريق رحلة العقل مع آيات اللّه الدالة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس، وتنمية الإدراك على هذه الساحة؛ قوةً فاعلة تفقه نصوص الوحي، وتعين على التدبر والتفكر والنظر والتنهيج، وبذلك تمنح صاحبها القدرة على أن يكون شيئاً مذكوراً ـ كما أراد اللّه ـ حين تتلفت الأمة يمنة ويسرةً، فلا تجد إلا أولئك الرجال الذين سلمت لهم تنمية الفكر السليم والتصور الواعي، وانطلقوا بكامل طاقاتهم في ميادين الإبداع والتغيير إلى ما هو الأفضل في ظل شرع اللّه القويم، وإعمال العقل حيث يجب أن يعمل، ويفيد من التبصُّر في آيات اللّه فيما خلق وكوّن وأحكم. وطوبى لمن علم فعمل وذُكِّر فتذكر، واللّه الهادي إلى سواء السبيل.